العددِ 21A ايار 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A May 2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

ثقافة العار وأنثربولوجيا القبيلة نسقية الشعر الجاهلي بين الواقع والمتخيل

م. د. بتول نعمة علي الموسوي
جامعة سومر / كلية التربية الأساسية
Batool.nama@uos.edu.iq

الملخص:

تتبنى هذه الدراسة مصطلح "ثقافة العار" للبحث عن النسق الثقافي والوقوف على تضمينات النص الشعري الجاهلي لأنثروبولوجيا المجتمع القبلي وفق سياقات وأنساق يرد فيها العار كأداة ضبط مجتمعية , أسهم الشعر على شيوعها وإثباتها بوصفه أداة تحول السلوك الخاص إلى فضيحة عامة لا تلحق بفرد واحد من القبيلة بل عار يوسم به الجميع , ليغدو العار شكلا من أشكال التبادل الاجتماعي قائم على مبدأ التكافؤ , تكافؤاً في الدماء، في الزواج، في الكرم وفي الشرف وهذا ما أوقعهم في ازدواجية القيم وتناقضاتها , فالمجتمع الجاهلي مجتمع خزي بامتياز؛ حيث لا يتحقق العار إلّا إذا رآه أو سمع به الآخرون .

يتجلى ذلك من خلال التأسيس لمفهوم العار الثقافي ومعاينة وتحليل نصوص شعرية تحمل الظواهر النسقية للعار , وتحليلها تحليلاً ثقافياً وفق المنهج التحليلي النصي , ليصل البحث لحقيقة أن العار لا يقرأ في الأدب كمسبة اجتماعية بل كنسق وظيفي يحمي الهوية الثقافية ويحدد ملامح الإنسان المثالي في ذلك العصر فالعار ليس مجرد شعور فردي بالذنب ، بل هو آلية تنظيمية تحفظ كيان القبيلة من التحلل , بوصفه عقداً اجتماعياً وظيفته القصوى هي تضامن الجماعة في بيئة صحراوية قاسية لا ترحم الضعفاء .

الكلمات المفتاحية : الشعر الجاهلي , العار الثقافي , ثقافة العار , أنثروبولوجيا القبيلة , النسق , نسقية الشعر .

The Culture of Shame and the Anthropology of the Tribe
The Systematics of Pre-Islamic Poetry Between Reality and Imagination

M.Dr Batool Nama Ali
College of Basic Educaion-Sumer University
Batool.nama@uos.edu.iq

Summary:

This study adopts the term "culture of shame" to explore the cultural system and examine the implications of pre-Islamic poetic texts for the anthropology of tribal society according to contexts and systems in which shame appears as a tool of social control. Poetry contributed to its prevalence and affirmation as a means of transforming private behavior into a public scandal that does not affect just one individual of the tribe but rather a shame branded on everyone. Thus, shame becomes a form of social exchange based on the principle of equivalence: equivalence in blood, marriage, generosity, and honor. This led them to a duality of values and contradictions. The pre-Islamic society is distinctly a society of disgrace; shame only occurs if others see or hear about it.
This is manifested through establishing the concept of cultural shame and examining and analyzing poetic texts that carry the systemic phenomena of shame, analyzing them culturally according to the textual analytical method. The research reaches the conclusion that shame is not read in literature as a social insult but as a functional system that protects cultural identity and defines the features of the ideal person in that era. Shame is not merely an individual feeling of guilt but an organizational mechanism that preserves the tribe's entity from disintegration, as a social contract whose ultimate function is the solidarity of the group in a harsh desert environment that shows no mercy to the weak.

Keywords: Pre-Islamic poetry, cultural shame, culture of shame, tribal anthropology, system, poetic systemics.

المبحث الأول : النسق الثقافي بين أنثروبولوجيا القبيلة ومفهوم العار الثقافي

مدخل :

تشكلت القبائل الجاهلية من بنية عصبية صلبة, واستمدت سلطتها من شرعية الحماية والاعتراف المتبادل, فلم تكن القبيلة مجرد تجمع سكاني، بل كياناً تراتبياً يتكون من أبناء القبيلة الأصلاء الذين يجمعهم جد واحد مشترك، ويشكلون النواة الصلبة والمقاتلة, ومن فئة الحلفاء وهم قبائل صغيرة أو أفراد احتموا بقبيلة قوية طلباً للأمن، ويصبح لهم ما للقبيلة وعليهم ما عليها بموجب عقد حماية , بالإضافة للموالين والخلعاء , ويُعدّ النسب هو الهوية الأساسية التي تمنح الفرد حق الحماية وتفرض عليه واجب القتال تحت سلطة شيخ القبيلة المتأتية بالإجماع , ففي الأنثروبولوجيا الجاهلية يعد الوقوف مع الجماعة واجبا مقدسا لتجنب التفكك , فلا وجود للفرد خارجها , كما يلعب العرف دورا هاما في السيطرة على القبيلة وتأطيرها فهو القوة الرادعة التي تجبر الجميع على الامتثال , إذن تشكّلت القبيلة من الدم والحلف، واستمدت قوتها من الإجماع والعصبية. لم تكن الظواهر الاجتماعية مجرد سلوكيات عابرة، بل كانت قوانين غير مكتوبة تحكمها ثقافة "العار والشرف" لضمان بقاء الجماعة في بيئة صحراوية قاسية.،

تتشابك أنثروبولوجيا القبيلة مع مفهوم العار الثقافي لتشكل ما يُعرف بـأنساق القيم التي تضبط سلوك الفرد داخل الجماعة, يعمل العار كآلية ضبط اجتماعية عليا تُحدد المقبول والمرفوض للنسق الثقافي خوفاً من الإقصاء الاجتماعي أو الفضيحة ، مما يجعل العار أداة للحفاظ على تماسك القبيلة وبقائها , ففي النسق القبلي العار هو الوجه المقابل لرصيد الشرف المكتسب ، فالعار هو الخسارة المطلقة لهذا الرصيد، مما قد يؤدي أحياناً إلى سلوكيات تعويضية عنيفة لاستعادة التوازن

وأبرز الظواهر التي تحكم أنساقها الثقافية هي ظاهرة العصبية وهي المحرك الحيوي للقبيلة في تحقيق التضامن المطلق, أما الكرم , فتعدّ الضيافة فيه نسقاً استثمارياً في السمعة, أما الثأر الذي كان بمثابة القانون الدولي يحفظ التوازن الأمني , ظاهرة العقاب الاجتماعي / الخلع ، وهي أقصى عقوبة تجرد الفرد من هويته وترك شعوره بالعار يواجه مصيره وحيداً بلا حماية.

بالإضافة إلى ظاهرة السيادة الجغرافية , والعرض , والمروة والشجاعة والقوة وهذه قيم تتمركز حولها القبيلة العار الثقافي هو مجموعة من العقود الاجتماعية غير المكتوبة التي تحرسها عيون الجماعة، وتجعل من الحفاظ على المكانة الاجتماعية أولوية قصوى تفوق حياة الفرد نفسه[1] .

مفهوم العار الثقافي :

يتشارك أفراد المجتمع الواحد نظما ثقافية واجتماعية تساهم بشكل كبير في تحديد سلوكهم وعلاقاتهم كما أن لهم من الموروثات والعادات والثقافات والقناعات ما يشكل الهُوية الجماعية لذلك المجتمع ويسهم في تأطير سبيل عيشهم بما يجعله ممكنا , فمن الضروري أن يتفق الناس على "عقد اجتماعي يؤطر تلك الحياة ويتحكم بها , فكان النظام القبلي وهو النهج الذي يعد العار محركا رئيسا في إدارته وثقافته ومفهوم العار بالمنظور الضيّق ، مجموع الاستنتاجات الشعورية المجتمعية القائمة على الانكشاف والوصم إزاء خرق المعايير السائدة، مستعملة كملمح لضبط السلوك والحفاظ على النظام الرمزي للمجتمع، وهو بذلك نتاج جماعي وليس فرديا يعمل على تحديده النسق (التواضع) "يضرب في عمق الذات لأنه يهددّها بمكمن رغبتها البدائية، رغبتها في أن يتحقّق انتماؤها إلى جماعة تنظر إليها بعين راضية فتعطيها معنى"[2].

والحديث عن مفهوم العار، يوجب الوقوف على التفريق بينه وبين الذنب فالتعيير هو شكل من أشكال الرقابة الخارجية متمثلة في نظرة المجتمع، الفضيحة، وكلام الناس , وهو أداة سياسية حادّة تُستخدَم في حال شطّ فردٌ ما عن الجماعة التي

[1] . ينظر : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي , عفيف عبد الرحمن، ، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1،1984: 17 .

[2] . ينظر : منظر العار وشاعره ترجمة نقدية لسيلفان تومكينز , زينة الحلبي , https://megaphone.news/long-

تعطيه معنى وشرعية يشعر الشخص بالسوء ليس لأنّ الفعل خاطئ في ذاته، بل لأنّ الآخرين عرفوا به العار يمس "الكيان " بأكمله (أنا شخص سيئ في نظر قبيلتي)، ويؤدي إلى النبذ الاجتماعي.وهذا العار لا يُمحى إلّا بفعل خارجي (ثأر، تعويض، أو إثبات قوة) لاستعادة الشرف أمام الجماعة , أما الذنب: فهو الرقابة الداخلية , الضمير الداخلي، القيم الشخصية، أو العلاقة المباشرة مع الخالق.يشعر الشخص بالسوء حتى لو لم يعرف أحد بفعلته، لأنّ هناك صراعاً داخلياً مع مبادئه , إن الفرق الأساسي بين تجربة العار وتجربة الذنب هو أن في تجربة العار، يبدو أن وجودي يتصاغر، وأتمنى لو أختفي -أموت-"، ففي ثقافة العار بما أنه متعلّق بنظر الآخرين، يبدو الموت وكأنه المخرج، وفي المقابل: "لكن في تجربة الذنب أميل إلى الاعتقاد بأني إذا اختفيت فسيأتي معي"[3] , لكون الأخير مرتبطا بالضمير الفردي للإنسان، والأول متعلّق بنظرة الجماعة ، وهو أداة لإعادة إنتاج السلطة المجتمعية وترسيخ مجموعة من المفاهيم، كالشرف والطهارة والسمعة الحسنة بالمفهوم المجرّد، وتتمحور عبر الرقابة الجمعية والخوف من الفضيحة والتهديد بالإقصاء، مثال ذلك: قول طرفة :

وحتى تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبّدِ[4]

والسبب أن الرجل كان يشرب الخمر!! في حين أن النصوص الشعرية العالية التي يحتفل بها المجتمع، تضج بالتغزل بالخمر، بل إن المجتمع لا يضع حدودا على قضية الخمر، غير أن وراء إفراد وإبعاد طرفة، قضايا أخرى غير الخمر، فاستثمرت القبيلة ذنب الخمر لتجعله عارا وهو ليس كذلك، وهي إنما دمجت بين الذنب والظاهرة الممنوعة، وهنا بدأ النسق بالاشتغال، كما أن هناك مظاهر يرتبط بها العار الثقافي، كالعار المرتبط بالجسد والثياب والسلوك، الخروج عن الأعراف والتمرّد على السلطة الأسرية، الانتماء الطبقي أو القبلي، وكل ذلك من مغذيات النسق في رؤيته للأشياء والأفعال على أنها عار، وهكذا يكون من مخرجات العار الثقافي هو ضبط السلوكيات، وعلى سبيل التمثيل: تكون المرأة حاملة لشرف الجماعة، والرجل حارسا لصونه، وهذا إنما هو تكريس للسلطة الذكورية للرجل، هذا فيما يتعلق بالمظهر الأنثربولوجي للقبيلة، غير أن العار الثقافي في الأدب، يتجه نحو الوعي والتفكيك، من الذي ينتج هذه الأنساق وكيف يقوم النقد الثقافي بتقويضها، وهو بلا شك أداة قمع وسلطة، والتقويض هو الفاضح الأوحد له، والخلاصة : يكون العار الثقافي مؤشرا على تمثلات السلطة وعلى العلاقة بين الفرد والمجتمع، وهو إنما يمثل بنية ثقافية معقّدة وأداة ضبط مجتمعية ووسيلة لإعادة إنتاج السلطة .

تمثّلات العار الشعريّة للقيم السلوكية :

إنَّ المدققَ في مواقف العربي في الجاهلية يصطدم بازدواجية ثقافية عميقة الجذور نابعة من الانتماء القبلي الذي يُشرّع مجموعةً من القواعد والقيم الأخلاقية أو الصفات المعتبرة في نظامهم المجتمعي النفعي حيث أرتبط الشرف والعار والكرم والشجاعة والثأر والفخر والذل ارتباطاً وثيقاً بكيان القبيلة , وهو الكيان الذي كان الشاعر يمثّل صوته الرسمي عنه والمدافع عن شرفه وساعيا ألى دفع العار عنه , ينصره بعصبية شديدة قد تصل إلى نصرة أفراده ظالمين كانوا أم مظلومين وفق غريزة الدفاع المنغرسة في كل فرد بغض النظر عن مبدأ العدالة , فالعربي لم يفهم السلطة إلّا بوصفها هيمنة القبيلة المفروضة وفق صلة الرحم والمصلحة المتحدة بين أبنائها فساهمت " العصبية في سيرورة الشعور الجاهلي إلى وعي عصبي تمثّل في صلات الرحم , والمضمون الأخلاقي "[(5)], يقول دريد بن الصّمة حول التبعية المطلقة ونصرة الأخ دون تمييز بين خطأ وصواب :

وما أنا إلّا من غَزِيَّة , إن غَوَت غَوَيتُ وإن تَرشدُ غزيَّة أرشدِ
دعانِي أخِي والخَيلُ بيني ونينَه فَلما دَعَانِي لَم يَجِدني بقُعدَدِ[(6)]

ولعل هذا العقد الاجتماعي الذي يلزم الشاعر أن يكون ضمير الجماعة قد انزاح من كونه واقعا ليكون عقدا فنيا في تجربته الشعرية يجعل من لسانه لسانا لقبيلته ومن شعره صحيفة لها[7] ما يمكن أن يطلق على هذا الانتماء ظاهرة

---

[3] أزمة الفلسفة الأخلاقية , رضا زيدان , مر كز دلائل 2021 : 53 .

[4] ديوان طرفة بن العبد , شرحه مهدي محمد ناصرالدين , دار الكتب العلمية , بيروت , ط3 , 2002 : 25 .

[5] – دراسة أنثرو لغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية , كريم زكي حسام الدين , مكتبة الانجلو مصرية , مصر , ط1 : 87 .

[6] – ديوان دريد بن الصمة , تحقيق د عمر عبد الرسول , دار المعارف , القاهرة , 1985 : 62 .

[7] ينظر : دراسات في الشعر الجاهلي , يوسف خليف , مكتبة غريب , ط1 1981 : 174 .

اجتماعية وفكرية وفنية تأصلت لدى الجاهليين يؤدي الشعر في ظلها وظيفة اجتماعية يحاول الشاعر من خلالها رسم صورة مثالية لقبيلته [8] يشكل الشرف قيمة أساسية في صناعتها , فكان ركيزة أساسية للمروءة والرجولة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالشجاعة والكرم وحماية الذمار ونصرة القبيلة فتجلى الشرف القبلي في إبراز النموذج البطولي المتسم بهذه القيم الراسخة في الوجدان الجاهلي كاعراف وقوانين تنظم حياتهم وتحقق شرفهم , فلم يكن الشرف استحقاقا فرديا فحسب بل هُوية جمعية ونسقا قبليا مرتبطا بمكانة القبيلة وضمانا لبقاء الجماعة .

عمل الشعر أداةً لترسيخ هذا النموذج البطولي لتكون هذه القيم والأعراف بمثابة النسق الثقافي خلف جماليات اللغة والغرضية الشعرية ويعمل بوصفه أيديولوجيا توجه سلوكيات الفرد توجيها استطاع أن يحول سلوك الفرد إلى فعلٍ ذي طابع مقدّ أيّ س يعوض أي خسارة مادية مما جعل الشرف المعنوي أعلى من الحياة نفسها فكانوا يؤمنون أن الحفاظ على الكرامة يستوجب أحيانا إراقة الدماء مما جعل الفخر محورا للقصائد , فتحول الشرف من مجرد قيمة أخلاقية إلى نظام ثقافي ونسق مهيمن صاغ الوعي الجمعي وحدد علاقات الفرد ببيئته .

ميكانيزم عمل العار الثقافي :

لا يمكن قراءة نسق العار في الأدب منفرداً؛ بل يُعامل كمرآة عاكسة لأنثروبولوجيا مجتمع كامل يكون العار فيه قوة ردع اجتماعية تضمن الامتثال لمبدأ الشرف , فالسعي لتحقيق الشرف في الجاهلية ليس قيمة إيجابية فحسب بل هو هروب مستمر من العار , كل قصيدة فخر بالشجاعة هي في جوهرها قصيدة هروب من عار الجبن , وتغني الشاعر بالكرم ليس لمجرد السخاء بل هروب من مذلة البخل التي تنال من مكانة عشيرته لأنّ الأدب هنا يُعامل كـ وسيلة دفاعية وإعلامية تخلد الشرف وتبدد العار فكانت الأنساق السلوكية هي رد فعل مباشر لتجنب العار مثل الثأر , فعدم الأخذ بالثأر يعد عارا يوصم الرجل وقبيلته ولا يمحوه إلّا سفك الدم , مثلما ارتبطت المرأة أنثروبولوجيا في الخيال الجاهلي بسبب يدعو للضعف لذا كان الشرف يقاس بالقدرة على حماية وصون الحرمات .

ترك لنا الشاعر الجاهلي في قصيدتهِ تجارب شعرية عديدة أَخضعها لمصفاة إدراكه النفسي، " فهو في رؤيتهِ للأَشياء وإدراكهِ لها قد استجاب للبيئة وللكون لا كما بَدَتْ أَشياؤها عليهِ في الواقع، بل كما أَدركها هو، أو كما بَدَتْ له، فقد أَضفى عليها من رؤياه ما يظهر فيها من قيمة ومعنى، وأَهمية تحقق هدفه الإبداعي "[9] , ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن الحياة الصحراوية هي التي غرست في نفوسهم تلك القيم وأصلتها من مثل" الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء"[10], فكان الشعراء الجاهليون يعدون حماية أعراض قومهم وأنسابهم من أهم وظائفهم، ولا يقل ذلك أهمية عن حماية الأرواح والأموال , فاستُخدم الشعر كوسيلة قوية لتمجيد فضائل القبيلة وأعمال فرسانها , وللرد على الأعداء وتعييرهم فكانت "ثقافة العار" هي الإطار المرجعي الذي حدد السلوكيات المقبولة والمرفوضة داخل المجتمع القبلي الجاهلي، ولعب الشعر دوراً محورياً في ترسيخ هذه الثقافة والتعبير عنها أدبياً , ثقافة نابعة من وعي جمعي قار أسس لأنساق ساهم تكرارها في تشكل سلوكهم و " لا يمكننا أن ننكر ما للتكرار من قيمة في تعزيز النسق الثقافي ، الذي لا يمنح تلك الخاصية، إلّا إذا تشكّل عرفاً شبه متواضع عليه، عاكساً نظرة مجموعة من البشر لأمر من الأمور ذات تعلق بجانب من جوانب حياة الإنسان الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسية أو العلمية أو الدينية..."[11] , لشكلت "ثقافة العار أنثروبولوجيا نظاما قيميا واجتماعيا قائما على الخزي الجماهيري, فالمجتمع الجاهلي مجتمع خزي بامتياز؛ حيث لا يتحقق العار إلّا إذا رآه أو سمع به الآخرون , و الشعر هو الأداة الأنثروبولوجية التي تحول السلوك الخاص إلى فضيحة عامة

العار الثقافي من الفردانية إلى المجتمع :

---

[8] ينظر : الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية , حسين جمعة , مجلة التراث العربي, دمشق , العدد63 : 81 .

[9] الشعر الجاهلي دراسة في تأويلاتِه النفسية والفنية , سعيد حسين العنبكي , دار دجلة , عمان , ط1 , 2007: 372

[10] تأريخ الادب العربي / العصر الجاهلي , شوقي ضيف , دار المعارف , القاهرة , 1960 : 67 .

[11] ينظر: قراءة النص وسؤال الثقافة , استبداد الثقافة ووعي القارئ بتحولات المعنى , د عبدالفتاح أحمد يوسف , عالم الكتب الجديد إربد , الاردن , 2009 : 111 .

العار هو الوجه العقابي للنسق الثقافي الجاهلي، حيث يحول الاستهجان الاجتماعي إلى قيد يمنع الفرد من التمرد على قيم القبيلة. فيواجه الشاعر صراعا وجوديا بين الالتزام الصارم بقيم القبيلة الجماعية وتعبيراته الفردية التي قد تخالفها أحيانا مما يجعله أمام رؤية معقدة تتسم بالازدواجية والإثنية كركيزة أساسية لثنائية الشرف والعار , العار الذي قد يلحق بفرد واحد من القبيلة فيوسم الجميع به مما يستوجب فعلا جماعيا كالثأر مثلا وهذا قد يوقعهم بحالات صدام مع المعايير الأخلاقية المطبقة داخل القبيلة والمواقف الفردية التي توجب الخروج عليها في أحايين كثيرة , وتتسع الدائرة ليحل العار بمثابة تبادل اجتماعي قائم على مبدأ التكافؤ , تكافؤ في الدماء، في الزواج، في الكرم وفي الشرف , فإذا لم ترد القبيلة التحية بالكرم، والاعتداء بالغزو والقتل بالثأر، فإنها تسقط أنثروبولوجياً من فئة الأحرار الشرفاء إلى فئة المستضعفين والمخزيين.

العلاقة بين العار والازدواجية في السلوك الجاهلي مسألة محورية في فهم طبيعة القيم القبلية، وهي ليست تناقضاً في الأخلاق بقدر ما هي تعبير عن نظام قِيَمٍ يرتكز على المنفعة القبلية ومبدأ القوة , تتجلى هذه الازدواجية في السلوك الجاهلي، حيث يكون الفرد الواحد حاميا للجار والملهوف مرة و مغيراً وناهباً مرة أخرى ، أو يكون كريما عزيزا ولكن يسمح لنفسه أن يحصل على ماله من نهب وسلب أناس آخرين , أو متعصبا لنساء قبيلته في عدم التعرض لهن فعلا وقولا ولكنه يتغزل بشكل صريح بنساء قبائل الآخرين وقد يؤدي به الموقف أحيانا إلى سبيهن والاعتداء عليهن , ويمكننا تفسير هذه العلاقة المعقدة بما يمكن أن نسميه بالشمول الإنساني فيكمن مفتاح الفهم في أن الشرف والعار في الجاهلية كانا مفهومين نسبيين ومحدودين بحدود القبيلة ذاتها , لذا نجد علاقة مراوغة ومعقدة بين الذات المبدعة والأنساق الثقافية المهيمنة، فالأنساق الثقافية رهائن ذاتها لا تخرج عنها ولا تتجاوزها، أما الذات المبدعة فهي تعي ذاتها أولاً وتعي الأنساق ثانياً وهذا بدوره يجعلها قادرة على ممارسة المساءلة والملاحظة والرصد إن شاءت ، ولكن تظلّ الأنساق الثقافية تمارس فاعليتها على نحو ما في المبدع فيكون من النادر خروج الشاعر عليها والانتصار لفرديته [12] .

الظواهر الفردانية غير المقصودة :

أن ثقافة العار هي التي أنتجت وأطرت الازدواجية في القيم العربية الجاهلية ، وجعلتها منطقية ومقبولة داخل النسق القبلي , إذ لم تكن مجموعة من القواعد الأخلاقية المطلقة بل كانت نظاماً براغماتياً نفعياً يهدف إلى الحفاظ على بقاء القبيلة وهيبتها فوق كل اعتبار , فالازدواجية كانت الأداة التي سمحت لهذا النظام بالعمل , لأنّ القبيلة كانت " خيارًا حقيقيا للإنسان الجاهلي، الذي وجد نفسه في عالم مستغلق بسبب معطيات الجدب والحرب ، وما نتج عنهما من الانطلاق من أساسٍ هو القوّة التي حاولت فرض معاييرها بوصفها مرجعية جوهرية يقوم عليها البناء القيمي في المجتمع القبلي الجاهلي"[13]

يظهر نسق العار في الشعر الجاهلي غالبا من خلال إثبات النقيض فلم يكن الإفصاح عنه بشكل صريح إلّا في بعض شعر التعصب للقبيلة وفي أشعار المتصعلكين , فعندما يبالغ الشاعر في الفخر بالكرم لم يكن الامر متعلقا في الكرم بحد ذاته بل هي نزعة ردع ووقاية ضد وصمة البخل التي تعد عارا قاتلا للمكانة الاجتماعية بوصف المجتمع هو العين الراصدة للمكانة من خلال المكارم , يقول ضَمْرة بنُ ضَمْرة النهشلي :

وطارقِ لَيْلٍ كنْتُ حَمَّ مبيته إذا قَلَّ في الحيّ الجميع الرَّوافِدُ
وقلتُ لَه: أَهْلاً وَسَهلاً وَمَرْحبًا وأكرمْتُهُ حتّى غدا وهو حامدُ
وما أنا بالسَّاعي ليُحْرِزَ نَفْسَهُ ولكنَّني عن عَوْرَةِ الحيّ ذائِدُ[14]

رصد الشعر عين المجتمع التي تراقب الفعل وتحفظ ذكره فاشتغل نسق العار كرقيب يؤسس للعلاقة بين الواقع والمتخيل يعيد صياغة الواقع ليصبح محتملا أو مقبولا ثقافيا كحالة مثالية تعويضية لحياته القاسية المليئة بالهزائم والجوع والضعف , يتدخل المتخيّل الشعري ليلق صورة البطل والكريم وكان نسق العار هو المحرك لهذا المتخيّل , فالشعر يحول

---

[12] ينظر : جدل العصبيَّة القبليّة والقيَم في نماذج من الشعر الجاهلي د علي مصطفى عشّا , مجلة مجمع اللغة العربية دمشق , ج 3 عدد 83 : 514 .

[13] المصدر نفسه .

[14] شعر بني تميم في العصر الجاهلي , تحقيق عبد الحميد المعيني ، منشورات نادي القصيم الأدبي ، السعودية, 1982 : ٢٧٨

الافعال الواقعية البسيطة إلى أنساق رمزية خالدة , تحول إبداعي من الواقع المُعاش إلى المتخيّل المؤطر وهذا ما يعكس وظيفة الشعر العليا , فلم تكن القيم الجاهلية كالكرم، الشجاعة، حماية الجار , أخذ الثأر قيمًا مطلقة، بل كانت محددة بحدود الجماعة القبلية , مما جعل الآخر الذي لا يتمتع بنفس الحقوق _في ذاته الفردية - جزءاً منصهراً في كيان أكبر يقال له الذات الجماعية ، تنتهي حريته عند حدود مصالحها ووجودها وبهذا الوعي يصبح المجموع لدى الشاعر المنتمي مساوياً للذات ؛ لذا كان ملزماً بالدفاع عن قبيلته وقيمها، وهو التزام أدبي وطوعي ."[15] لهذا حل الانتماء كظاهرة اجتماعية وفكرية ثمّ فنية ، تأصّلت لدى الجاهليين في وجوه كثيرة، وهو حسّ مرتبط بالقبيلة كمحن تختزل الذات في الواقع وفي المتخيّل فنجد الشاعر أحيانا منصاعا للجماعة دون الاحتكام للأخلاقيات المتصلة بالصواب والخطأ , يقول قريط بن أنيف

قومٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ قاموا إليه زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا
لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهَانَا[16]

و يقول أحد الشعراء المجهولون وهو يمجد بكرم وسيادة بقبيلته:

اخترْ فِناءَ بني عَمْرو فإنهمُ أولُو فضولٍ وأقدار وأخطارِ
إن يُسألوا الخير يُعطَوهُ وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيبَ أخبار
وإن تودَّدتهم لانوا وإن شتموا كَشَفْتَ أذمارَ سرٍّ غير أسرار[17]

ولا يتحرّك هذا النسق الأخلاقي في فراغ تاريخي، بل هو ضمن الموروث الثقافي والأخلاقي للشاعر الجاهلي، وهذه القيم تحاول خرق الحصار الذي فرضه التحدّي البيئي، بمزيد من التلاحم بين "الأنا" و "الآخر"، إنّها تسعى لتأسيس حياة أكثر تماسكا على أنقاض هذا العصر الذي تمزّقه الحروب والصراعات والجدب وحتى معضلة الانتماء نفسها التي يدافعون عنها كل لقبيلته , تقول الخِرنْقُ بنت بدر:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ والطَّيّبونَ مَعاقِدَ الأُزُرِ
الضَّاربون بِحَوْمةٍ نَزَلَتْ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزُرِ
النّازلون بكُلّ مُعْتَرَك والطَّاعنون بأَذْرُع شُعُرِ
والخالطون لُجَيْنَهُمْ بِنُضارِهِمْ وذوي الغنى منهم بذي فقر[18]

تسعى هذه النظم الأخلاقية إلى بلورة صورة الحياة المعنوية للمجتمع الجاهلي، دون التخلّي عن القوّة، بل تظلّ الدعامة الأساسية لحفظ هذه القيم، التي شكّلت كياناً معنوياً، وقانوناً أخلاقياً أعلى يشدّ الحياة الجاهلية إلى المثال، ويكبح جماح القوّة التي كادت أن تعصف بالحياة والمجتمع. ويتعدى الشعري في نهاية المطاف ، كونه نظاما من الممارسات الفرديّة ليكون فيه الشاعر أداة يتحقق بها النسق الثقافي وأهدافه لكونه لا يتحرك خارج إطار النسق الثقافي [19] فتتكون أنثروبولوجيا النسق من سابق للاحق كما يتوارث الشعراء البناء النصي تتسرب إليهم مادته النسقية ومعانيه الأنثربولوجية , يقول أوسْ بن حَجَر :

فلا وإلهي ما غَدَرْتُ بذمّةٍ وإنّ أبي قبلي لغيرُ مُذَمَّم
يجودُ ويُعْطي المالَ مِنْ غير ضِفّةٍ وَيضْرِبُ أَنْفَ الأَبْلَجِ المُتغشّمِ [20]

الشعر"يعمل بمثابة كوابح وروادع داخلّية للسلوك , لمنع تجاوز حدود معّينة تهّدد الكيان المجتمعي , أيّ يمارس دورا كبيرا لتحقيق الضبط الاجتماعي "[21] ليتجاوز الشعر كونه مجرد انعكاس للواقع، بل إعادة صياغة له لكي يصبح الواقع

---

[15] الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية: 83 .

[16] ديوان الحماسة , أبو تمام حبيب بن أوس الطائي , شرح أحمد حسن بسج , دار الكتب العلمية , لبنان , ط1 , 1998 : 11 .

[17] ديوان المعاني , أبو هلال العسكري، تحقيق أحمد حسن بسج , دار الكتب العلمية , بيروت , 1994: 1 / 23 .

[18] ديوان الخرنق بنت بدر, تحقيق د حسين بكار , دار الكتب المصرية , ط2 , 1996 : 29 –31 .

[19] ينظر : لسانّيات الخطاب وأنساق الثقافة , عبد الفتاح أحمد يوسف ، الّدار العربّية للعلوم، منشورات االختالف، ط1, 2010 :140

[20] ديوان أوْس بن حَجَر، تحقيق محمد يوسف نجم , دار صادر , بيروت ، ط 2 : 118 .

[21] جماليات التحليل الثقافي , يوسف عليمات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان , ط1، 2004 : 42

محتملاً أو مقبولاً ثقافياً , فعمل المتخيّل كقناع يحقق مثالية تعويضية للواقع القاسي ، وللحياة المليئة بالهزائم والجوع والضعف , فصنع المتخيّل الشعري صورة البطل الذي لا يُهزم والكريم الذي لا ينضب ماله , وأسطورية الثأر , ليهرب من عار الواقع إلى متخيّل الشرف الذي يجب أن يكون .

المبحث الثاني : العار والهويّة القبلية

مدخل :

تعد الهوية خصوصية ثقافية وأهم رافد من روافد الهوية الفكرية في إي مجتمع كان، ولا ريب أنّ ضياع الهوية الفكرية الذاتية تعني ببساطة ضياع الإنسان لأنّ التفكير ذو الطابع الخصوصي واحد من مقومات الحفاظ على الكائن البشري , ولعل قيم المجتمع الجاهلي من أهم ملامح الهوية الجمعية الثقافية , يمكننا أن نرصد ثقافة العار كهوية تحمل موقفاً ازدواجياً وأثنية من هذه القيم الراسخة , وفر هذا الموقف نظاماً أجتماعياً يسمح بوجود سلوكيات تبدو متناقضة ظاهرياً ، و تصب في خدمة هدف واحد هو: بقاء القبيلة قوية، مهابة، ومكتفية في بيئة قاسية ومنافسة , لم يكن العار مرتبطاً بالسلوك نفسه ، بل بالنتيجة النهائية التي تجعلهم أمام حالتين : القوة والهيبة مقابل الضعف والذل , فنجد الشاعر الجاهلي يفتخر بالمنعة لقبيلته وقدرتها على دفع العار بالقوة والسلاح , ويفرض على غيره عكس ذلك من الضعف والمهانة , مما جعل القيم بإثنية عرفية وأخلاقية واضحة , يقول عمرو بن كلثوم :

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْواً وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِيْنَا[22]

فالضعف والعجز هما المحرك الأساسي للفرد الجاهلي ، لتجنب العار وعدم الظهور بمظهر الضعيف الذي لا يستطيع حماية قبيلته أو توفير مواردها , وتقع الازدواجية القيمية على ما يعد أصيلا في ثقافاتهم ومهما كالكرم والثأر والمرأة والانتماء والنسب وما يتداخل معها من وأعراف وعادات , فيقف عمرو لمنع التأسيس للعار فيقول :

أَلا لا يَجهَلَن أَحَدٌ عَلَينا فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلينا[23]

فهو هنا لا يتحدث عن غضب شخصي، بل يضع مانعا لحماية قبيلته , لردع أيّ محاولة لإلحاق العار بالقبيلة قبل وقوعه , للعار قابليةٌ على الامتداد ليشمل قضايا متعددة غير متعلقة بالفرد وحسب، بل بالجماعة، و بمجاورة قيم أخرى وهذا ما يمكننا أن نسميه عارا مؤسسا و هو العار المتعلق بالشرف هو العار الذي يضرب أصل النسق وعموده الفقري، ولا يمكن إصلاحه بفعل فردي بسيط لأنه يمس شرعية الكيان القبلّي كقول السموأل :

إذا المرء لَم يدنس من اللؤمِ عِرضه فكل رداء يرتديه جميل[24]

بمعنى أن فكرة اللؤم والبخل وغيرها من السلوكيات المؤدية لعار ما، إنما تكون مشروعة بإزاء العار المؤسس، المتعلق بالشرف، بمعنى أدق، أزح عن نفسك عار الشرف وارتكب ما تريد، هذا المقصود، في حين أنه يتعرض بالنص نفسه، لسلوكيات أخرى متعلقة بالعار، غير أنها ليست مؤسسة، كقوله :

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليلُ[25]

هناك قضايا (شحتها) وقلتها، لا تعد عارا، أليست القلة والكثرة مما تغنى به الشعراء، ويعدّ نسقا، لكنه لا يؤسس لعار نسقي، فالجبن لايعني الهروب من المواجهة أو المعركة، بل يعني عدم التمكن من حماية المرأة , يمتد نسق الظواهر بمفهوم القبيلة، كما أن البخل لا يعني المنع والشحة، بل يعني محدودية السمعة والاندثار في الحسب والتمركز كرتبة بين الناس، فهو يمتد إلى أبعاد أخرى، ضابطها هو المجتمع أو القبيلة وهذا يعني إن قاعدة العار، إنما تتأسس على مظاهر منزاحة لا تقف عند الفعل نفسه بل تتخطاه لتشمل أمورا كثيرة تخلل الفعل المقترف , وعلى هذا الأساس يمكننا رصد مظاهر العار المقصودة والمؤسسة فالشرف يعني الجبن ، عدم امتلاك الأرض يعني الضعف ، الفقر يعني فقدان الرتبة ، اللافخر يعني التشرذم ، وهكذا يكون العار كأداة ضبط مجتمعي .

ثنائية الكرم و الغزو :

---

[22] ديوان عمرو بن كلثوم , جمع وتحقيق وتحقيق : د أميل بديع يعقوب . دار الكتاب العربي , بيروت , ط2 , 1996 :90 .

[23] المصدر نفسه :78 .

[24] ديوان السموأل رواية أبي عبدالله نفطويه , تحقيق الاب لويس شيخو اليسوعي , المطبعة الكاثوليكية , بيروت , ط1 , 1909 : 6 .

[25] المصدر نفسه .

الكرم و الغزو صفتان مرتبطتان ببعضهما البعض بشكل عضوي ، محركهما المشترك هو القوة الاقتصادية والسمعة , وإن ممارسة الكرم المفرط كالإطعام ، و نحر الإبل كانت استعراضاً للثراء الذي يرفع هيبة القبيلة الاجتماعية , وهذه القيم مثل الشجاعة , الأمانة، الكرم ، وحماية الجار هي سنن تؤسس للشرف وتجنب العار تورثوها من آبائهم حتى جرت في المتخيّل الشعري كانساق ثقافية واضحة , فنجد لبيداً يوضح توارثهم هذه المكارم بالنسب والعرف, فيقول :

مِن مَعشَرٍ سَنَّت لَهُم آبائُهُم وَلِكُلِّ قَومٍ سُنَّةٌ وَإِمامُها
وَإِذا الأَمانَةُ قُسِّمَت في مَعشَرٍ وفى بِأَوفرِ حَظِّنا قَسّامُها

فهم عشيرة لها من الأخلاقيات والعادات ما توفر نسقا أخلاقيا رفيعا , و لها من الفرسان ما يدفع عنها شر كل أمر فظيع عند القتال وحكام عند الخصام , وهم لمن جاورهم من النساء اللواتي نفدت أزواجهن بمنزلة الربيع أيّ العطاء الكثير وهذا هو الكرم المتمثل بالحماية والجود :

وَهُمُ السُعاةُ إِذا العَشيرَةُ أَفظِعَت وَهُمُ فَوارِسُها وَهُم حُكّامُها
وَهُمُ رَبيعٌ لِلمُجاوِرِ فيهِمُ وَالمُرمِلاتِ إِذا تَطاوَلَ عامُها

النسق الثقافي هو آلية لإنتاج القيم , عندما يتم تكرار الظاهرة , وتنتقل عبر الخطاب الشفاهي تكتسب صفة المقدس الاجتماعي الذي لا يُناقش , لكنها تصبح نسقاً عندما يرتبط بها مصير الجماعة بأكملها. ؛

فالالتزام بالأمانة هو معيار الفضل الجماعي ، ومن يوفي به يحظى بأعظم شأن إذا تخلف فرد، وُصمت القبيلة كلها, فيصف قومه بأنهم ملجأ وملاذ للجار والمستغيث ، وهي قيمة عليا في ثقافتهم فحماية الجار كواجب مقدس من أهم مظاهر الترفع بين الاقوام هنا فقد الفعل عفويته الفردية وأصبح واجباً بنويّاً، يقول :

وَيُكَلِّلونَ إِذا الرِياحُ تَناوَحَت خُلُجاً تُمَدُّ شَوارِعاً أَيتامُها
إِنّا إِذا اِلتَقَتِ المَجامِعُ لَم يَزَل مِنّا لِزازُ عَظيمَةٍ جَشّامُها

يوثق صورة البذل للمساكين والمحتاجين جفانا عظاما ففي ضنك المعيشة في الشتاء يكون لقومه إذا اجتمعت القبائل رجل يسودهم ويغضب لهضام حقوقهم ويقمع الخصوم ويغزوا ويستحصل الغنام فيقسمها بينهم جاعلا من الغنائم حقا مشروعا لابناء قومة غاضا النظر عن الجانب الاخر الخاص بالمغزوين اللذين تتيح لهم ثقافة القبلية أن يجار عليهم وينهبون , فالكرم لا ينفك عن الركون للقوة , وهذا يحتم عليهم مصيرا أخلاقيا مجانبا لاصل القيمة وإيجابيتها يقول :

وَمُقَسِّمٌ يُعطي العَشيرَةَ حَقَّها وَمُغَذمِرٌ لِحُقوقِها هَضّامُها[26]

وهنا إشارة لتقسيم الغنائم كأمر مقبول ورفيع في ثقافتهم , فهو يستحسن فعل العدالة بتقسيمها ولا يستقبح المصدر والطريقة التي استحصلها من خلالها فشأنه في هذا الفعل الكرم الذي يحسبه شرفا ، بغض الطرف عن أن هذا الشرف غالباً ما يُموّل من النهب أو الغزو , ففي ثقافتهم يلحق العار بمن يفتقر فيبخل ، ولا يلحق بمن يسلب ليجود , فيحل فعل السلب وسيلة تمكين لقيمة الكرم وهذه الازدواجية ليست نفاقاً بمعناه المعاصر، بل هي أخلاق القوة الدائرة في فلك ثقافة العار وانساقها الإقصائية .

وإن كان العربي يطمح لخلق توازن بين القيم والصفات إلّا إن الظروف المحيطة به والحتميات الوجودية توقعه في ازدواجية جغرافية للشرف والعار مرتبطة بحماية الذِمَار , فتموضع الأنثروبولوجيا المكانية للعار القبلي على اختراق الأرض، أو الحِمى، أو المرأة , لأنّ حماية هذه المجالات هي التي تمنح القبيلة شرعية البقاء في الصحراء، وفقدانها يعني ضياعا وذوبانا في قبائل أخرى, فقد ذكر ابن بشر الآمدي أن بني محلّم بن ذهل بن شيبان أغاروا على إبل جارٍ شاعر عربي فأتبعهم وقَتَل منهم وارتجع الإبل وقال:

أمِن مالِ جارٍ رُحْتَ تَحْتَرِشُ الغِنَى وتدفعُ منك الفقرَ يا ابن مُحَلَّمِ
لقدْ ما أَتيتَ الأمر من غير وَجهِهِ وأخطأتَ جَهْلا وجهةَ المتغنّمِ
فما نحن بالقوم المباحِ حِمَاهُمُ وما الجارُ فينا إن علمتَ بِمُسْلَمِ
وأَنَّا مَتَى نَنْدَبْ إلى الموتِ نأتِهِ نخوضُ إليه لجَّ بَحْرٍ مِنَ الدَّمِ[27]

[26] شرح ديوان لبيد بن ربيعة , تحقيق وشرح دإحسان عباس , التراث العربي , الكويت , 1962 : 131 .

نجده هو الحامي للجار و الداعي لشن الغارات وخوض بحور الدم ولججها , وهذا يوقعه في إثنية أخلاقية فرضتها عليه طبيعة العيش في بيئة تكون الفروسية والقوة هي الوسيلة الأسمى لتحصيل الشرف وتجنب العار فالجُبن هو العار الأكبر، والشجاعة هي الفضيلة المطلقة التي قد تتوقف عن كونها فضيلة , فنرى عامر بن الطفيل يستغلّ سرد بطولات قومه في إظهار صورة المقاتل الذي يسفك الدماء :

ألسْنا نقودُ الخيل قُبّاً عوابساً ... ونخْضبُ يوم الروع أسيافنا دما
ونحمي الذّمار حين يشْتجرُ القنا ... ونثني عن السَّرب الرعيل المسُوّما[28]

فالبيئة القاسية و " الخوف والشؤم، والشرّ، والألم، سيطرت على حياتِهِ، وَتركت في داخلِهِ أَثَراً نفسياً ، وقد أَدّت البيئة فاعلية كبرى وَبارزة في تشكيل شعر الشاعر الجاهلي ، التي انعكست على الحالة النفسية التي يمرُّ بها[29] والانساق الثقافية التي يعتنقها ويؤمن بتحقق النجاة من خلالها .

نطالع لهم أشعارا كثيرة تصفهم أُولوا بأس شديد وقدرة فائقة على خوض الحروب من دون أن يسأموا أو يتخاذلوا حتى ينالوا النصر أو القتل في ساحة المعركة ، كرسالة ردع للخصوم عن خوض الحرب ضدّهم وتنبيههم على عواقب النتائج ، فلا تمنع صفاتهم النبيلة وأخلاقهم المحمودة من حسن المأمن والالتزام بالوعد وعدم الغدر عن الانتصار لمصالحهم القبلية الخاصة إذا ما نصع البأس , يقول سُوَيدْ بن أبي كاهل اليشكري :

لا يَخافُ الغَدْرَ مَنْ جاوَرَهم أبداً منهُمْ ولا يَخْشى الطَّبَعْ
وَمَسَاميحُ بما ضُنَّ به حاسِرُوا الأنْفُسِ عن سُوءِ الطَّمَعْ
وُزُنُ الأحلامِ إنْ هُمْ وازنو ا صادِقوا البأسِ إذا البأْسُ نَصَعْ[30]

وهذا الواجب الاجتماعي والمعيار القيمي جعل الفارس العربي يرفض سبي نسائه. فكان عامر بن الطفيل يُهدّد خصومه وينذرهم بعدم وطيء أراضي نُمير لأنهم حاضرون بها، فيقول:

تجنَّبْ نُميْرا و لا تُوطِها ... فإنَّ بها عامراً حُضّر
وإنَّ رماحَ بني عامِرٍ ... يُقَطِرن مِلْ عَلَقِ الأحْمَر[31]

ولكن نجده بموضع آخر وموقف مخالف إتخذ جيش عامر بن الطفيل من الليل ساتراً له ليقطع طرقه نحو الخصوم، ليباغتهم بغارة غازية , يقول:

وبيّتنا زبيداً بعد هدءٍ ... فصبح دارهم لجباً لهاما [32]

ويقول كذلك :

لقينا جمعهم صبحاً فكانوا ... كمثل الضأن عاداهنَ سيدُ [33]

وهذه الثقافة نفسها جعلت لبيد فارس يغزو ويدافع عن حياض قبيلته جاعلا من السلب مقبولا باستحصال الكرم فيظهرا بمظهر الكمال , اذا لا كرم إلّا بسوق الغنائم و سلب الاخرين وهنا تكمن الازدواجية في القيم الجاهلية للقبيلة , يقول :

نَحنُ بَنو أُمِّ البَنينَ الأَربَعَه وَنَحنُ خَيرُ عامِرِ بنِ صَعصَعَه

---

[27] المؤتلف والمختلف, أبو القاسم الحسن الآمدي، دار الجيل، بيروت ، ١٩٩١ : ١٢٧

[28] . ديوان عامر بن الطفيل بشرح ابي بكر محمد بن القاسم الانباري , تحقيق د محمود الجادر وعبد الرزاق خليفة الدليمي , دار الشؤون الثقافية , بغداد , ط1 , 2001 :157 . 158

[29] جدلية القيم في الشعر الجاهلي : 25

[30] ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري , مراجعة محمد جبار المعيبد , وتحقيق شاكر عاشور , وزارة الاعلام , ط1 , 1972 : 27–28 .

[31] . ديوانه : 119 . 120

[32] . ديوانه : 70

[33] . المصدر نفسه : 91

المُطعِمونَ الجَفنَةَ المُدَعدَعَه وَالضارِبونَ الهامَ تَحتَ الخَيضَعَه[34]

فلقد كانت " كل قبيلة مستعدة للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر وهي دائما شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ولذلك كانت الشجاعة مثالهم الاعلى "[35]

يعيش العربي انفصاماً وظيفياً ؛ فهو يحتاج للقيم الخيرية ليتماسك مجتمعه داخلياً، ويحتاج للقيم العدوانية ليرهب مجتمعه خارجياً. العار هو الفشل في تمثيل هذين الدورين في وقتهما الصحيح , فالنسق الثقافي يفرض القوة كشرط وحيد لتجنب العار، سواء بالدفاع أو بالهجوم , فتكون الإغارة هي الوسيلة الأساسية للحصول على الثروة التي يمارس بها الكرم لاحقاً , والفشل في ذلك يجلب الخزي , فلا يجد عارا في الغزو، بل في عدم القدرة على الغزو أو في البخل بالغنيمة , نجد عنترة الذي يمثل وعيا أخلاقا ايجابيا في الفروسية يفتخر بمباكرته المعركة غازيا ومغيرا مع فتيان من بني عبس ، فيقول:

باكرتُها في فتيةٍ عبْسيةٍ من كلّ أروع في الكريهة أصيد
وترى بها الرايات تخفق والقنا وترى العجاج كمثل بحر مُزبد
فهناك تنظرُ آلُ عبس موقفي والخيلُ تعثرُ بالوشيج الأمْلد[36]

كما كان وقت الطعان في الصباح الباكر والكرُّ والفرُّ في ساحة المعركة أحبُّ إليه من كلِّ ضروب اللهو الأُخرى في الحياة، فيقول:

صباحُ الطّعن في كرّ وفرّ ولاساقٍ يطوفُ بكأس خمْر
أحبُّ إليَّ من قرْع الملاهي على كأسٍ وإبريقٍ وزهْر[37]

فينعموا بأكبر قدر من الغنائم، يقول :

وصحابةٍ شمِّ الأُنوفِ بَعَثْتُهم ... ليلاً، وقد مالَ الكرى بِطلاها
وسَرَبتُ في وَعثِ الظلام أقُودها ... حتى رأيتُ الشمسَ زالَ ضُحاها
فرجعتُ محموداً برأسِ عظيمِها ... وتركتُها جَزَراً لمَن ناواها[38]

فيغدو فعل الهتك والإغارة ممارسة مشروعة للقوة لا تجلب العار، بل الفخر والشجاعة. فالعار هنا ليس مرتبطاً بفعل النهب نفسه فهو مصدر قوة ورزق، بل هو مرتبط بالعجز عن الحماية. من العار أن تكون ضعيفاً لدرجة لا تستطيع بها حماية من استجار بك ، أو أن تكون فقيراً لا تستطيع الغزو فتتحول السلوكيات الازدواجية وجه آخر للقوة القبلية المحمودة.

العار النسوي بين التقديس والاستباحة :

تُظهر المرأة في الشعر الجاهلي وجهًا أصيلاً من وجوه الانتماء القبلي ففي إطار ثقافة العار يُعتبر شرف الرجل والقبيلة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بـ عفة النساء وصونهن , وأي مساس بالمرأة يعد تعديا على شرف القبيلة وعاراً جسيماً لا يُمحى إلّا بالثأر والانتقام , لذا كان الشعراء يدافعون عن نساء قبيلتهم بشراسة ، ويصفونهن بالحصانة والعفة والمنعة , فقد كانت المرأة المصونة هي معيار الرجولة والشرف, يقول عمرو بن كلثوم :

عَلَى آثَارِنَا بِيْضٌ حِسَانٌ نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهُوْنَا
أَخَذْنَ عَلَى بُعُوْلَتِهِنَّ عَهْداً إِذَا لاَقَوْا كَتَائِبَ مُعْلِمِيْنَا
لَيَسْتَلِبُنَّ أَقْرَاساً وَبِيْضاً وَأَسْرَى فِي الحَدِيْدِ مُقَرَّنِيْنَا

---

[34] . شرح ديوان لبيد : 281 .

[35] تأريخ الأدب،العصر الجاهلي , شوقي ضيف ، ،دار المعارف , القاهرة ، ط11 : 62 .

[36] . شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي , مجيد طراد , دار الكتاب العربي , بيروت , ط1 , 1992 : 154 .

[37] . المصدر نفسه:86

[38] . المصدر نفسه : 207

إذا لم نحمهن، فلا بقينا ... لشيءٍ بعدهن، ولا حيينا

كما كانت نساء عمرو بن كلثوم يحرضنه على الاقتتال ويفضلن الإبتعاد عن الازواج اذا لم يقدروا حمايتهن ,لأن ثقافتهن للعار الذي يلتصق بالرجل غير القادر على حمايتهن تستوجب عليهن تركه كما توجب عليهم ادراك ان لا بقاء لهم ولا حياة اذا لم يتمكنوا من ذلك , فالمرأة داخل القبيلة هي ملكية جماعية يجب صونها، والمساس بها يجلب الخزي الجماعي مما يستوجب الثأر , فيقول أيضا :

فَصَالُوا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْنَا
فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالمُلُوْكِ مُصَفَّدِيْنَا[39]

ولعل هذا الوعي جعل من خروج النسا معهم في الحروب للتشجيع والتماس الحفيظة وخوف الفرار ثقافة ووعي بأهمية وجود المرأة وأثر خطابها في تحقق ما يدفع العار .

كانت المرأة واعية لتأيرها في استنهاض الفارس في تحقق النصر و حفظ الذمار وهذا تسرب لوعي الجاهلي حيال المرأة , إذ يعتبرها عبئاً على القبيلة لأنها مقصد الأعداء، فتؤخذ سبية، وسبي المرأة عارٌ لا يُسكت عنه ولا يَقعدُ دونه إلّا الوغد الذليل[40] فالمرأة في المجتمع الجاهلي دون مكانة الرجل بكثير، وقد كانت العرب تحُبّ الذكور وتفضلهم على الإناث، لأنهم جنود القبيلة وفرسانها ورجالها الحماة، أما المرأة فلا تغني في الحرب شيئاً، ولعل العار هو من برر قضية تثاقل العربي من ولادة الانثى له , ليعمد بعض الاعراب لحرمانها حقّ الحياة منذ ولادتها فتُوْءَدُ في الأرض حية , لما تلقيه على ذويها من الرجال أعباء ثقيلة في مداراتها والمحافظة الدائمة عليها من اعتداء الآخرين أو من الفقر أو من عاديات الزمن ، وقد دفعهم هذا العبء النفسي إلى الاغتياظ من ولادتها[41] خوفاً من العار الذي قد يلحق بالقبيلة إذا تعرضت البنت للأسر أو سلوك غير لائق كالتغزل بها أو خوفا من الفقر والاملاق , هذا يعكس الهوس المركزي بمفهوم الشرف , بتحويل المرأة ملكاً خاصاً يُمعن الرجل في التشبث به ، لذلك " لم تُمانع شرائع الجاهليين في وأد البنات ولم تعدّ من يئد البنت قاتلاً ، ولم تؤاخذه على فعله، حتى الأمهات لم يكن من حقهن منع الآباء من وأد بناتهن ، لأنّ الزوج هو وحده صاحب الحقّ والقول الفصل فيمن يولد له ، وليس لا مرأته حقّ الاعتراض عليه"[42] يفعلونه كاستباق للعار وهو الظاهرة الأنثروبولوجية الأكثر قسوة للتعبير عن رعب العار , وإن كان وَأْد البنت ليس بالأمر العام أو شديد الشيوع في المجتمعات الجاهلية، إلّا أنه كان سائغاً لديهم لايحرمونه ولايمنعونه , يقول أحد الأعراب قصيدة يفخر فيها بوأده ابنته ومطلعها:

سميتها إذ ولدت تموت والقبر نزل طيب وبيت

ينظر للمرأة كثغرة أمنية وعورة يجب سترها بالتراب لضمان عدم حدوث انكسار في شرف القبيلة مستقبلاً فالقتل كان وسيلة تطهير استباقية للنسق .

ومع وجود هذة الثقافة المجتمعية نرى أن وأد البنات في الجاهلية على كثرة ما جاء من أخباره عمل فردي رفضه أولو الألباب وحقروا مقترفيه , ولكن الحديث والإفاضة التي تحدث بها البعض عن وأد البنات في العصر الجاهلي تجعلنا نعجب إذ كيف جاءت كل هذه القبائل ، وكل هؤلاء الأفراد الذين نسمع عنهم في هذا التاريخ وهذا العصر[43] .

كان موقف الشاعر الجاهلي من شرف المرأة متعلقا بثقافة العار التي تتبناها القبلية حيال مبدأ الشرف الداخلي في حماية نساء القبيلة و الحفاظ عليهن ، بينما كان هتكه لأعراض نساء أخريات إباحة عرفية تتيح له إذلال الأعداء وتحقيق الشرف الخارجي , وهذا الفعل لا ينبيء عن فصام أخلاقي يعانيه الشاعر أو الفرد الجاهلي بشكل عام , بل هو تطبيق منظومة قيمية معقدة تتحدد فيها الأخلاق بالانتماء القبلي ، ويتماهى الشرف مع القوة والقدرة على الصون والهتك في آن واحد , الشاعر نفسه الذي يدافع عن حرمة نساء قبيلته ، لا يتورع عن الغزل الصريح والتشهير بأسماء نساء القبائل

---

[39] ديوانه : 86-87 .

[40] . ينظر: الشعر الجاهلي – خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري , مؤسسة الرسالة , بيروت , ط5 , 1986 : 73.

[41] . ينظر: محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام , ثابت اسماعيل الراوي و عبدالله سلوم السامرائي , مطبعة الرشاد, بغداد , 1969 : 137.

[42] . المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام , د جواد علي , دار الساقي , 2001 :5/ 528.

[43] . قضايا المرآة , الشيخ محمد الغزالي ، مكتبة الأسرة , 1999 :62.

الأخرى , فيصف مفاتن المرأة الأخرى وصفاً حسياً دقيقاً ، ويذكر اسمها أو كنيتها صراحة ، كقول امرئ القيس في وصف حبيبته بذكر أسماء صريحة مثل "فاطمة" للغزل ، وغالباً ما كانت رمزية لتجنب العار الحقيقي:

أفاطِمَ مَهلاً بعضَ هذا التّجَمّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فأجملي[44]

يرى العديد من الباحثين أن أكثر أسماء النساء في مطلع القصائد (الغزل) كانت أسماء تقليدية أو رموزاً شعرية لا تخص امرأة بعينها , الهدف من هذه الأسماء لم يكن التشهير بامرأة حقيقية وإلحاق العار بها بشكل مباشر، بل كان تقليدا فنيا كجزء من بنية القصيدة الجاهلية التقليدية [45] , تحمل دلالات جمالية أو رمزية معينة في مخيلة الشاعر, ويعد التصريح بأسماء نساء حقيقيات من قبيلة الشاعر أو قبيلة أخرى عارا قبليا و هتكا شعريا يؤدي حتماً إلى ردود فعل عنيفة وحروب، التزاماً بثقافة العار. لذا لجأ الشعراء إلى التلميح بأسماء متخيلة أو كنايات.

كان الغزل الصريح سلاحاً في يد الشاعر لإلحاق العار بقبيلة كاملة , فكما أن الشرف مرتبط بالمرأة حضوريا من خلال حمايتها من السبي والضيم ، فإن المساس بها شعرياً هو شكل من أشكال الغزو المعنوي والإهانة للرجال المسؤولين عن حمايتها , وفي الوقت الذي يصف عنترة حميته إتجاه جارته كجزءاً من شرفه ورجولته عندما يقول:

وأغُضُّ طرفي إن بدت لي جارَتي حتى يواري جارَتي مأواها
إني امرؤٌ سمْحُ الخليقةِ ماجدٌ لا أُتْبِعُ النفسَ اللّجوجَ هواها[46]

يمارس عنترة هنا الضبط الذاتي الصارم, فغض الطرف ليس مجرد أدب فردي، بل هو حماية لحرمة الجار؛ لأنّ المساس بشرف الجارة هو عار ينسف مروءة الفارس ويجعله غادراً في عرف النسق .

يؤخذ على امرئ القيس وصفه الحسي للمرأة، وذكره لبعض المغامرات التي تتجاوز الأعراف القبلية , كشكل من أشكال الهتك الرمزي لأعراض الآخرين من أجل إظهار الفحولة والشهرة , فقد هشم حرمة البيوت في معلقته واصفا مغامراته مع أبنة عمه أو نساء القبائل الاخرى قائلا :

ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ:لَكَ الوَيْلاَتُ ،إنَّكَ مُرْجِلِي[47]

يفتخر باختراقه خدر عنيزة , وهذا قمة الاذلال لفرسان قبيلتها , فكان جريئاً في وصف النساء، متمردا على ثقافة العار التي تحيط المرأة بالقدسية, وأشترك معه الاعشى بهذه الجرأة من خلال أستخدام الغزل كأداة سياسية أو اجتماعية للضغط على القبائل , ومثله المنخل اليشكري الذي اشتهر بتصريحه متعزلا ومخترقا حرمة الخدرالذي يعد حدا يمثل حدود القبيلة باكملها في قصيدته التي يتغزل فيها بزوجة النعمان بن المنذر بشكل فاضح , يقول :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير[48]

وهذا لا يشي بوجود تناقض حقيقي في ذهن الجاهلي بين الموقفين، بل هو تطبيق لمعايير مختلفة حسب النسق الثقافي الذي يتيح التمييز بين نساء القبيلة ونساء الآخرين, فالمرأة المصونة التي لا يُغزل بها هي ابنة العم، الزوجة، الأخت، أو الجارة التي هي في حماية القبيلة , أما المرأة المغزول بها، فهي غالباً ما تكون من قبيلة أخرى ، وهي انساق إزدواجية تسمح للشاعر بتفريغ طاقاته الغزلية دون المساس بنظام الملكية القَبَلي الصارم صونها كعرض والتحرش بها كجمال, أو هي صورة شعرية مثالية لا وجود لها في الواقع ، هدفها الفني هو تزيين القصيدة واجتذاب ذوق المتلقي بمرأة مؤطرة بالمتخيل لا الواقع .

---

[44] . ديوان امرئ القيس، تح: حنّا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت–لبنان، ط3 ، 1995 : 30 .

[45] . ينظر : دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر , عبد الله حبيب التميمي و سحر كاظم حمزة الشجيري مجلة جامعة بابل , كلية التربية , مجلد22 عدد 2 , 2014 : 324 .

[46] . شرح ديوان عنترة : 208–209 .

[47] . ديوانه : 33

[48] . شرح ديوان الحماسة , يحيى بن علي التبريزي , تحقيق : غريد الشيخ , دار الكتب العلمية , بيروت , 2000: 2/ 230 .

الثأر :

أرتبط الثأر في المجتمع الجاهلي بسياقات ثقافة العار فأسس خوفهم منه أستمرارا للعنف وديمومة للصراعات إذ رُوج له عبر شعر الثأر وأنساقه التي اتفق عليها السلوك الجمعي , فتغلغلت في شعر الثأر منها خرافة الصدى والهامة " إذ زعموا أن الانسان إذا قتل ولم يُطلَب بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الهامة وصاح على قبره : أسقوني ... أسقوني إلّا أن يطلب بثأره "[49] مما يجعل أهل المقتول أمام نسق اسطوري يحرك عواطفهم لأخذ الثأر , يقول لبيد بن ربيعة :

وليس الناس بعدك في نقير ولا هم غير أصداء وهامِ [50]

ثقافة اسطورية قام عليها الوجدان العربي الجمعي وليس مجرد رد فعل فردي , كانت في أنثروبولوجيا القبيلة واجبا مقدسا يقدم الراحة والسكينة لروح الميت كما انه واجبا وجوديا يبقي القبيلة وضرورة مجتمعية تحتم عليهم التحريض على الاقتتال ورفض الدية والصلح فالدم في شريعتهم لا يشفيهم منه إلّا الدم, يقول تأبط شرا :

قليل غرار النوم أكبر همة دمُ الثأر أو يلقى كميا مسفعا[51]

ففي الأنساق الأنثروبولوجيا الجاهلية ، دم القتيل يبقى عاراً معلقاً في رقبة الأحياء لا يزول إلّا بالدم. دمه حملا ثقيلا كما يصوره تأبط شرا:

إنَّ بِالشِعبِ الَّذي دونَ سَلَعٍ لَقَتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ
نَقَلَ العِبءَ إليَّ وَتَوَلّى وَأَنا بِالعِبءِ لَهُ مُستَقِلُّ[52]

فكلمة العِبء هنا استعارة لنسق العار, لأنّ في الواقع أن القتيل قد مات، لكن المتخيّل الشعري يحول موته إلى حمل مادي ينتقل للأحياء من أوليائه إذا لم يُقتل القاتل , و يظل هذا العبء عاهة اجتماعية تُنقص من وزن القبيلة في ميزان القوى لو تراجعوا عنه فيصور الشعر موقف الموتور وصدره مليء بالغيض ونار الثأر يقول عنترة :

يا قيسُ إنّ صدُورنَا وقَدَت بِها نارٌ بأَضلعِنَا تَشُبُّ وقودَها
فأنهَض لأخذِ الثَأرِ غيرَ مُقصرٍ حتى تَبيدُ مِنَ العِداةِ عَديدَها [53]

مما يدفعهم طلب الثأر على العيش هائجا منصرفا عن كل متع الحياة حتى يغسل العار الذي لحق بهم , يقول المهلهل بن ربيعة :

خُذِ الْعَهْدَ الأَكِيدَ عَلَى عُمْرِي بِتَرْكِي كُلَّ مَا حَوَتِ الدِيَارُ
وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ وَلُبْسِي جُبَّةً لاَتُسْتَعَارُ[54]

ويقول :

قَدْ شَفَيْتُ الْغَلِيلَ مِنْ آلِ بَكْرٍ أَلِ شيبانَ بينَ عمٍّ وَ خالِ
فَلَعَمْرِي لأَقْتُلَنَّ بِكُلَيْبٍ كلَّ قيلٍ يسمى منَ الأقيالِ
وَلَعَمْرِي لَقَدْ وَطِئْتُ بَنِي بَكْرَ بما قَدَّ جنوهُ وطءَ النعالِ
لَمْ أدعْ غيرَ أكلبٍ وَ نساءٍ وَ إماءٍ حواطبٍ وَ عيالِ
فاشربوا ما وردتمُ الآنَ منا وَ اصدروا خاسرينَ عنْ شرِّ حالِ[55]

---

[49] نهاية الأرب في فنون الأدب , شهاب الدين النويري , تحقيق د مفيد قميحة , دار الكتب والوثائق القومية , القاهرة , ط1 , 1432هـ : 1/ 519 , المفضل في تأريخ العرب قبل الاسلام : 341/6 .

[50] شرح ديوان لبيد بن ربيعة : 209 .

[51] ديوان تأبط شرا وأخباره , تحقيق علي ذو الفقار شاكر , دار العرب الاسلامي , ط1 , 1984 :

[52] شرح ديوان الحماسة : 342 .

[53] شرح ديوان عنترة : 52 .

[54] ديوان المهلهل بن ربيعة , شرح طلال حرب , الدار العالمية د ع : 15 .

يُعامل الشاعر العربي العارَ كعقدة درامية فمن دون وجود وصمة العار التي تلاحقه لعدم أخذه ثأر قتيله لن يتحرك الفعل الشعري , العار هنا هو الذي يصنع البطولة من خلال محاولة محوه بالثـأر "في الايديولوجية الثورية، يحرَّض العارُ على العار." [56]فكان الشاعر هو المتبني الاول لفعل البغي والاستكبار والفخر بالاصل والقبيلة يقول زهير بن أبي سلمى:

ومَن لَم يَذُد عَن حَوضِه بِسلاحِهِ يُهدم ومَن لا يَظلِمُ الناسَ يُظلَم[57]

يُشرعن النسقُ الظلم/الغزو كآلية دفاعية استباقية لمنع وقوع عار الاستباحة والضغف .

النسب :

شكل النسب بعدا اجتماعيا تصل فيه ثقافة العار إلى ذروة تأزمها أنثروبولوجيا مع فئة غير قليلة من الجاهليين بسبب ولادتهم من نساء معبودات من الرق و السود , فوصمة العار المتمثلة في عدم الاعتراف بابوتهم كابناء أحرار، جعلتهم يعانون العبودية والحرمان الوجودي في مجتمع قبلي صارم يعلي من شأن الحسب والنسب , فأتخذ كثير من الشعراء السود شعرهم تمثيلا لهذه الثقافة فمثلوا الازدواجية في أبهى صورها مصورين العار الذي لحق بهم ، والشرف الذي كانوا يتوقون إليه , مما دفعهم للاعتزال او التمرد بقول الشنفرى :

وَلي دونَكُم أَهلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

الشنفرى هنا يمارس "قلب النسق , يتجاوز ثقافة العار الجماعي ليؤسس بطولة فردية متوحشة بما أن القبيلة ألحقت به عار النبذ/الخلع، فإنه يعلن أن "أهله" هم الذئاب والنمور , وهذا بيان استقلال عن سلطة القبيلة التي لم تعد توفر له الكرامة.

عاشوا بين الشرف المفقود والتعويض المكتسب فانتهى بهم الامر ليكونوا شعراء وفرسانا ومتصعلكين , كما هو عنترة الذي حول العار لآلية دفاعية، عندما واجه عار النسب بشرف الفعل، وحوّل العبودية إلى فروسية ، مما جعله يمثل تحدياً فريداً للمنظومة القبلية الجاهلية التي كانت تقدس النسب على حساب الكفاءة الفردية , وتظهر بتناقض واضح في ثقافتها , فالقبيلة التي تُلحق بالشاعر العار برفض نسبه، هي نفسها التي تستغيث به ليدفع عنها عار الهزيمة , يقول :

ينادونَني في السِلمِ يا اِبنَ زَبيبَةٍ وَعِندَ صِدامِ الخَيلِ يَا اِبنَ الأَطايِبِ[58]

بهذه الازدواجية يكشف زيف المعيار القبلي الذي يتوسل بالمنبوذ ليحمي الشرف , مؤكداً أن الشرف الحقيقي ليس شرف النسب الموروث ، بل شرف الفعل المكتسب بالفروسية والشجاعة في الحرب , يصف سواد لونه بأنه محمود كالمسك وفعل شريف , يقول :

لَئِن أَكُ أَسوداً فَالمِسكُ لَوني وَما لِسَوادِ جِلدي مِن دَواءِ[59]

يتحدى عنترة النسق فيحول الهجنة كعار مؤسس إلى فعل فروسي يُجبر القبيلة على الاعتراف به , فقلب معادلة السواد كعار إلى السواد كفخر .

كما كان النبذ بسبب اللون عاملا لاثبات الذات من خلال المبالغة في هتك الآخر , فشعورهم بالدونية الطبقية، جعل هؤلاء الشعراء أكثر مبالغة في هتك الأعداء والتشهير بجبنهم , كأنهم يبالغون بقتل البيض وأصحاب النسب من الأعداء وسيلة لغسل عار السواد الشخصي , وهذا بسبب ثقل الضياع وانعدام القيمة الاجتماعية التي تصيب الفرد المنبوذ ، مما يظهر مدى ارتباط الفرد بالنسق القَبَلي والخوف من العار المترتب على الانفصال عنه , مما يجعله باحثا عن قيمة تعويضية تخلصه من العار حتى لو قربته إلى عار آخر قد يصيبه كالتصعلك مثلا .

---

[55] المصدر نفسه : 69 .

[56] منظر العار وشاعره ترجمة نقدية لسيلفان تومكينز , زينة الحلبي , https://megaphone.news/long-

[57] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى , أبو العباس ثعلب , تحقيق د فخر الدين قباوة , مكتبة هارون الرشيد , دمشق ,ط3 , 2008 : 35 .

[58] شرح ديوان عنترة : 35

[59] المصدر نفسه : 22 .

كان يمارس شرفاً تعويضياً لقد هتكوا هيبة الأعداء ليُرمموا كبرياءهم الجريح ، والتزموا بأقسى قيم الشرف كحماية الجار ليجبروا القبيلة على الاعتراف بهم ، فكان شعرهم ساحة لتفكيك مفهوم العار العرقي لصالح الشرف الأخلاقي والميداني , فيبرر عروة الغزو والنهب من الأغنياء الأقوياء لإطعام الجياع والضعفاء من قومه , ويؤسس لشرف جديد يقوم على المغامرة والعدالة الاجتماعية ,والقوة التي تخدم الضعيف ، حتى لو تطلب الأمر انتهاك القواعد القبلية السائدة بالغزو:

وَإنّي امرُؤٌ عافي إنائيَ شِركَةٌ وَأَنتَ امرُؤٌ عافي إنائِكَ واحِدُ
أَلومُ فَتًى يُعطي الطَّرِيحَ وَبَعضُهُم يَلومُ عَلى تَعديدِهِ النُّحبَ حاسِدُ[60]

يصبح الغزو، الذي هو عار في نظر بعض القبائل المسالمة ، شرفاً وعدالة اجتماعية في نظر عروة فتتخذ ثقافة العار طابعاً فريداً يمزج بين التمرد على النظام القَبَلي القائم والالتزام بقيم أخلاقية صارمة شكلت شرفاً بديلاً من أجل تحقيق القيمة التي تجعله مقبولا في المجتمع الذي نبذه وخلعه .

الخاتمة :

تخلص هذه المكاشفة الأنثروبولوجية لنسق القبيلة والتشكل الثقافي للعار إلى نتائج جوهرية تفسر آليات عمل العقل الجمعي العربي القديم، وأبرزها:

- إنّ ظاهرة العصبية من أبرز الظواهر التي تحكم الأنساق الثقافية فهي المحرك الحيوي للقبيلة في تحقيق التضامن المطلق .
- لم يكن الشعر ترفاً أدبياً، بل كان الأداة الإجرائية التي تُفعل ميكانيزم العار , فلقد كان الشعر في العصر الجاهلي مختبرا تُجرى فيه عمليات ترميم الشرف أو رجم الخصوم بالعار فالقصيدة هي التي تُحدد من يسود ومن يهون في ذاكرة الصحراء.
- كان العار في النسق القبلي مُعديا ؛ ففعل الفرد يلطخ النسب بالكامل , لذا كانت القبيلة تلجأ لخَلع أو نبذ أيّ فرد يهدد نقاء النسق الثقافي للجماعة.
- مظاهر العار المقصودة والمؤسسة (الشرف يعني الجبن ، عدم امتلاك الأرض يعني الضعف ، الفقر يعني فقدان الرتبة ، اللافخر يعني التشرذم ، وهكذا يكون العار كأداة ضبط مجتمعي .
- لم يكن الغزو في البادية مجرد عدوان، بل هو إعادة توزيع قسري للثروة في بيئة شحيحة , و القبيلة التي لا تغزو تُغزى، والعجز عن حماية الحمى أو استرداد الإبل المنهوبة هو أقصى درجات العار.
- الثأر هو الغسيل المادي للعار الرمزي في الجاهلية ، الدم لا يُعوضه إلّا الدم؛ لأنّ فقدان فرد من القبيلة هو ثغرة في جدار قوتها، ولا تُسد هذه الثغرة إلا بهدم جدار مماثل عند الخصم، وإلا بقيت القبيلة موسومة بالذل في الذاكرة القبلية.
- تستخدم القبيلة النسب لجذب الأفراد وتستخدم الخلع كسيف لضمان انضباطهم تحت سقف قيمها؛ فمن خرج عن القيم، انخلع من النسب، فواجهه العار منفرداً بلا حماية.

المصادر :

- أزمة الفلسفة الأخلاقية، رضا زيدان، مركز دلائل، ٢٠٢١.
- الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية، حسين جمعة، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٦٣، ١٩٩٦.
- تأريخ الأدب العربي/ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.
- جدل العصبيَّة القبليّة والقيَم في نماذج من الشعر الجاهلي، د علي مصطفى عشّا، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق، ج ٣ عدد ٥١٤.
- جماليات التحليل الثقافي، يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

[60] ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك , تحقيق وشرح: أسماء ابو بكر , دار الكتب العلمية , بيروت , 1998 : 61 .

- دراسات في الشعر الجاهلي، يوسف خليف، مكتبة غريب، ط١، ١٩٨١.
- دراسة أنثرو لغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الانجلو مصرية، مصر، ط١.
- دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر، عبد الله حبيب التميمي وسحر كاظم حمزة الشجيري، مجلة جامعة بابل، مجلد ٢٢ عدد ٢، ٢٠١٤.
- ديوان أوْس بن حَجَر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط ٢.
- ديوان امرئ القيس، تح: حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٩٥.
- ديوان تأبط شرا وأخباره، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار العرب الاسلامي، ط١، ١٩٨٤.
- ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٨.
- ديوان الخرنق بنت بدر، تحقيق د حسين بكار، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٦.
- ديوان دريد بن الصمة، تحقيق د عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.
- ديوان السموأل رواية أبي عبدالله نفطويه، تحقيق الاب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١، ١٩٠٩.
- ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، مراجعة محمد جبار المعيبد، وتحقيق شاكر عاشور، وزارة الاعلام، ط١، ١٩٧٢.
- ديوان عامر بن الطفيل بشرح ابي بكر محمد بن القاسم الانباري، تحقيق د محمود الجادر، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠١.
- ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تحقيق وشرح: أسماء ابو بكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: د أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.
- ديوان طرفة بن العبد، شرحه مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢.
- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.
- ديوان المهلهل بن ربيعة، شرح طلال حرب، الدار العالمية.
- شرح ديوان الحماسة، يحيى بن علي التبريزي، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق د فخر الدين قباوة، مكتبة هارون الرشيد، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨.
- شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي، مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق وشرح د إحسان عباس، التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢.
- شعر بني تميم في العصر الجاهلي، تحقيق عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢.
- الشعر الجاهلي – خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨٦.

- الشعر الجاهلي دراسة في تأويلاتِه النفسية والفنية، سعيد حسين العنبكي، دار دجلة، عمان، ط١، ٢٠٠٧.
- الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، عفيف عبد الرحمن، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤.
- قراءة النص وسؤال الثقافة، د عبد الفتاح أحمد يوسف، عالم الكتب الجديد، إربد، الاردن، ٢٠٠٩.
- قضايا المرأة، الشيخ محمد الغزالي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩.
- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠.
- محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام، ثابت اسماعيل الراوي وعبد الله سلوم السامرائي، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٦٩.
- المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، د جواد علي، دار الساقي، ٢٠٠١.
- منظر العار وشاعره ترجمة نقدية لسيلفان تومكينز، زينة الحلبي، موقع ميغافون https://megaphone.news/long.
- المؤتلف والمختلف، أبو القاسم الحسن الآمدي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، تحقيق د مفيد قميحة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ.